دواء القدر

تأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

عضو المجمع العلمي العراقي

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي



مجلة إسلامية علمية أدبية

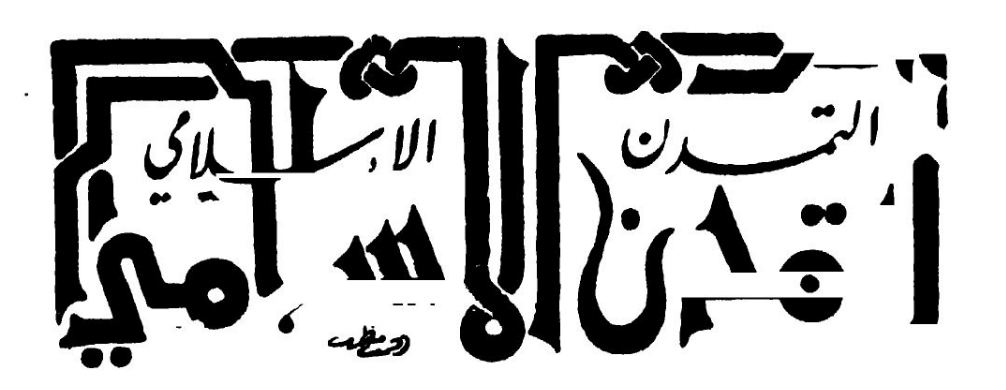
تصدر بدمشق عن



١٣٨٦ ﻫ　　　١٩٦٦ م

أجزاء ٢٩ – ٣٢　　　من المجلد ٣٣

أجزاء ٢٩ - ٣٢ من المجلد ٣٣



مجلة إسلامية علمية أدبية

تصدر بدمشق عن

جمعية التمدن الإسلامي

دمشق : سورية

١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م

وكتم الرّجل أمره عن أمه ، فهي لا تعرف أنه قانط من الحياة ، وأنه يعدّد أيامه الأخيرة وأنه مستسلم للقدر كالمحكوم عليه بالموت حين لا يجد أملا في النجاة ؛ فهي تترع له الكأس بالحل وتُعدّ الخبز الأسمر الساخن ، وتحمد الله من كل قلبها على إقبال ابنها على ازدراد الطعام بانتظام وشهيّة .

-٢-

ورسم الرجل المريض لنفسه مخطّطاً ثابتاً : يستيقظ مبكرا ، وبعد صلاة الفجر يتناول فطوره ، ثم يقصد الحقول فيقضي ساعتين في مسيرة كان في أول أيامه يتلكأ فيها ويسير الهوينا ، ثم تدرّج حين اشتد عوده حتى أصبح بعد شهر يمشي ثلاثة أميال ذهاباً وثلاثة أميال إياباً . وفي باحة الحقول يسترخي على ظهره ويستنشق الهواء العليل عميقاً في زفيره وشهيقه حتى كأنه يأكل النسيم أكلًا .

وحين يعود الى المدينة يقضي وقته في نديّ حارته بين لداته متصتاً لأحاديثهم مقبلًا على سماعها ، فينسى خلال تلك الفترة مرضه ومصيره . حتى إذا سمع المنادي ينادي لصلاة الظهر قصد مسجداً قريباً من داره ، فإذا قضيت الصلاة عاد الى بيته وتناول غداءه ثم نام ساعتين أو أكثر ، فاذا حلّ العصر قصد ذلك المسجد وأدى فريضة الصلاة ، ثم سرح في البساتين حيث يعود الى المسجد عند أذان المغرب ، وبعدها يعود الى أهله فيتناول عشاءه ، ثم ينتظر صلاة العشاء ، وبعد الصلاة يأوي الى فراشه مبكراً ، فيسقط عليه كالحجر إذ ينام حتى الفجر .

وفي اليوم التالي ، يبدأ سيرته الأولى .

ومضى شهران كاملان ، وهو في كل يوم يزداد صحة وعافية ، حتى اصبح شخصاً آخر : قوياً متماسكاً ، لا يشكو علّة ، ولا يشعر بمرض .

وكان كل يوم يمر عليه يزيد مرضه رسوخاً ، ويسير به سيراً حثيثاً إلى نهايته المرتقبة .

وسمع المريض بقدوم ابن بطلان من بغداد إلى حلب ، فهرع إليه يعرض عليه أمره ، ويتوسّل به أن ينقذه مما ألمّ به من أسقام .

وكان من مزايا ابن بطلان الصّراحة القاسية ، فأطلعه على تردي حاله ، وأنذره باقتراب أجله ، وصرفه من عيادته وهو يتعثر بأهداب اليأس والقنوط .

وعاد الرجل إلى أهله يتلوّى . وكان قد حُرمّ الطعام شهوراً كثيرة ، وكان اليأس قد استحوذ عليه ، فعزم أن يلقى الله ببطن مملوءة لا ببطن خاوية .

وكان طعام الفقراء حينذاك من الخبز والخل ، إذ لم يكن الشاي معروفاً في سورية ولا في منطقة الشرق الأوسط ، وكانت كميات الشاي المستوردة من جزر الهند ومن الهند قليلة فهي غالية التكاليف باهظة الثمن ، فكان الشاي لذلك يستعمل دواءً أو رحيقاً للمترفين ، ولم يكن الشاي كما هو اليوم إدام (١) الفقراء الذين لا يجدون غيره إداماً .

وأقبلت أمّه تسعى إليه بكأس من الخلّ والخبز ، فالتهم الرجل الزاد التهاماً ثم كرع (٢) ما تبقّى من الخلّ في الكأس حتى الثمالة (٣) .

وتناول في مسائه الخلّ بالخبز ، وتناول في فطوره الخل بالخبز أيضا .

وكان فطورة وغداؤه وعشاؤه كل يوم لا يتغير : الخل والخبز ، فقد كان الرجل صعلوكاً ، ليس له غير أمه وغير سقيفته التي ورثها عن أبيه والتي تسمى مجازاً دارا ... !

---

(١) الإدام : ما يُؤتدَم به الخبز . (ج) : أُدُمٌ .

(٢) كرَع في الماء أو الإناء : تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفّيه ولا بإناء .

(٣) الثمالة : البقية في أسفل الإناء من شراب ونحوه . (ج) : ثُمالٌ .

وفي يوم من الأيام ، اجتاز بالطبيب ابن بطلان وهو في عيادته ، وقد زال ما كان به من المرض ، وضمر جوفه ، وحسنت حاله ... !

ودعاه ابن بطلان وقال : « أأنت الذي حضرت عندي من مدّة ، وبك الاستسقاء ، وقد كبر بطنك ودقّت رقبتك ، فقلت لك مالي فيك حيلة ؟ قال : « بلى » . فقال الطبيب وهو في حيرة من أمره : « فبماذا تداويت حتى زال ما كان بك ؟ ! » . فقال : « أنا رجل صعلوك ، لا أملك شيئاً ، وليس لي غير والدتي العجوز الضعيفة ، وكان لها دُنَيْن (١) خلٍّ ، فكانت كلّ يوم تطعمني منه بخبز ! ! » .

قال ابن بطلان : « وهل تبقى من الخلّ شيء ؟ » . قال : « نعم ! » . فقال : إمش معي لأرى الدّن الذي فيه الخلّ » .

ومشى الرجل بين يدي الطبيب ابن بطلان الى بيته ، حتى وقفا على دنّ الخلّ ، فأفرغ ابن بطلان ما كان فيه من الخلّ ، فوجد في أسفله أفعيين وقد تهرّأتا ... !! فقال له : « يابنيّ ! ما كان يقدر أن يداويك بخل فيه أفعيان حتى تبرأ ، إلاّ الله عزّ وجل (٢) » .

وعاد ابن بطلان أدراجه إلى عيادته ، وفي طريقه كان يردّد : « إذا عجز الأطباء عن شفاء المرضى ، فإن طبيب الأطباء لا يعجز » .

ولا حارس كالأجل فلا نامت أعين الجبناء .

بغداد : محمود شيت خطاب

---

(١) الدّن : وعاء ضخم للخمر ونحوها . ودُنين : مصغّر دنّ .

(٢) انظر أصول هذه القصة في كتاب الاعتبار – أسامة بن منقذ – مطبعة جامعة برنستون – الولايات المتحدة – ١٩٣٠ ص (١٨٣) .



عدالة السماء :

دواء القدر

للواء الركن محمود شيت الخطاب

أتى رجل مريض عيادة الطبيب ابن بطلان [1] في حلب وكان طبيباً مشهوراً بالمعرفة والعلم والتقدم في صناعة الطب، فشكا اليه مرضه، فرأى ابن بطلان أن المريض قد استحكم به الاستسقاء وكبر بطنه، ورقت رقبته، وتغيرت صحته.

وفحص الطبيب مريضه، فوجده قريباً من القبر بعيداً من الحياة، فقال ابن بطلان للمريض: «ياولدي! مالي والله فيك حيلة، ولا ينجع الطب فيك، فانصرف الى رحمة الله».

لم يكن ابن بطلان أول طبيب عاين هذا المريض، فقد لجأ من قبله إلى كثير من الأطباء: أمره بعضهم بالحمية، وأمره آخرون بالكي [2]، ووصف له قسم بعض الحشائش الطبية، فأصبح الرجل مختبراً للأدوية، وأصبحت معدته صيدلية سيارة.

(١) طبيب مشهور كان في بغداد ومارس الطب في حلب وانطاكية، وقد ترجم له ابن أبي أصيبعة «في طبقات الأطباء» - مصر - ١٨٨٢م - (١ / ٢٤١ - ٢٤٣)، والقفطي في «أخبار الحكماء» - مصر - ١٢٢٦هـ - ص (٢٠٨).

(٢) من الأمثلة السائرة: آخر الدواء الكيّ. وكواه كيّاً وكيّة: أحرق جلده بحديدة محماة ونحوها. وفي التنزيل العزيز: (يوم يُحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) واكتوى فلان: استعمل الكيّ في بدنه. واستكوى: طلب الكيّ.

وكتم الرجل أمره عن أمه ، فهي لا تعرف أنه قانط من الحياة ، وأنه يعدّد أيامه الأخيرة وأنه مستسلم للقدر كالمحكوم عليه بالموت حين لا يجد أملا في النجاة ؛ فهي تترع له الكأس بالحل وتُعدّ الخبز الأسمر الساخن ، وتحمد الله من كل قلبها على إقبال ابنها على ازدراد الطعام بانتظام وشهيّة .

- ٢ -

ورسم الرجل المريض لنفسه مخطّطاً ثابتاً : يستيقظ مبكرا ، وبعد صلاة الفجر يتناول فطوره ، ثم يقصد الحقول فيقضي ساعتين في مسيرة كان في أول أيامه يتلكأ فيها ويسير الهوينا ، ثم تدرّج حين اشتد عوده حتى أصبح بعد شهر يمشي ثلاثة أميال ذهاباً وثلاثة أميال إياباً . وفي باحة الحقول يسترخي على ظهره ويستنشق الهواء العليل عميقاً في زفيره وشهيقه حتى كأنه يأكل النسيم أكلا .

وحين يعود الى المدينة يقضي وقته في نديّ حارته بين لداته منصتاً لأحاديثهم مقبلا على سماعها ، فينسى خلال تلك الفترة مرضه ومصيره . حتى إذا سمع المنادي ينادي لصلاة الظهر قصد مسجداً قريباً من داره ، فإذا قضيت الصلاة عاد الى بيته وتناول غداءه ثم نام ساعتين أو أكثر ، فاذا حلّ العصر قصد ذلك المسجد وأدى فريضة الصلاة ، ثم سرح في البساتين حيث يعود الى المسجد عند أذان المغرب ، وبعدها يعود الى أهله فيتناول عشاءه ، ثم ينتظر صلاة العشاء ، وبعد الصلاة يأوي الى فراشه مبكراً ، فيسقط عليه كالحجر إذْ ينام حتى الفجر .

وفي اليوم التالي ، يبدأ سيرته الأولى .

ومضى شهران كاملان ، وهو في كل يوم يزداد صحة وعافية ، حتى اصبح شخصاً آخر : قوياً متماسكاً ، لا يشكو علّة ، ولا يشعر بمرض .